

البحث عن دور ههكن

حول دور المجلات الثقافية في حركة التحرر الوطني
والتقدم الاجتماعي

يريد ان يقدم عناصر تحليل اولية لدور المثقف في المجتمع العربي ، هو المحرك المركزي لهذه الدراسة . من هنا فنحن لا نبحث عن نتائج نهائية ، او حلول . بل نبحث عن الاسئلة التي يجب طرحها فسي سبيل استنطاق حركة صراع وطنية ، طبقية ، بالفة العنف ، اجوبتها الحقيقية ، التي تعيد بها الاعتبار للحقيقة العلمية ، بوصفها جدلا لعناصر تمول قصر من التحالفات الطبقية ، على ضوء مقتضيات الصراع ، وعلى ضوء تطور وعي الذات ، وفترة الطبقات الشعبية على قيادة التحالف الطبقي الوطني .

البحث عن الاصلية

١ - ارتبطت الاسئلة الجديدة في الحقل الايديولوجي العربي ، الحدث ، بثلاث ظاهرات اجتماعية كبرى .
١ - الاحتلال العسكري المباشر الذي مارسه أوروبا الرأسمالية ، والذي بدأ عمليا مع حملة بونايرت على مصر . هذا الاحتلال الذي كشف عن الهوية الكبيرة بين تقدم الغرب الصناعي و « تأخر الشرق » . والملاحظ ان هذا الاحتلال قد ادخل ، ولو بشكل اولي ، الصحافة ، بوصفها وسيلة اعلامية حديثة . (١)

ب - ولادة دلة محمد علي في مصر . وهي اول محاولة نهضوية حديثة حاولت بناء دولة مركزية ، مركزة على عنصرين اساسيين : الجيش الحديث والتعليم العالي . لكن جرت تصفية هذه المحاولة بشكل تدريجي ، بفضل الهجمة المباشرة التي قام بها التحالف الاوروبي العام ضدها . فباتحصار هذه المحاولة وتراجعها ، فتح الباب واسعا امام تغفل النفوذ الاستعماري في جميع مرافق الحياة العربية .

ج - نمو المدن التجارية وتوسعها على حساب ضرب الحرف المحلية . اي نمو مدن التبادل (بيروت) على حساب المدن الحرفية (حلب ودمشق) حيث ولدت طبقة تجارية تلعب دور الوساطة مع الصناعات الغربية التي اجتاحت المنطقة (٢) . هنا اتى التعليم الحديث والجامعة ، بواسطة ارساليات اجنبية ، ساهمت في فرس بدور الاجتياح الاستعماري للمنطقة ، وزرعت بذور الاستعمار الثقافي الذي لا تزال تعاني منه الى الان .

تجرب هذه الظاهرات الثلاث ، بالشكل التصنيفي السريع الذي قدمناها به ، العديد من ظواهر التحولات الاقتصادية والاجتماعية الهامة ، التي نتجت عن ثورات وحروب وانتفاضات شعبية ، لم تستطع مقاومة منطلق الرأسمالية الغربية الصاعدة والتي تجتاح العالم . ففرغت التبعية المطلقة على المنطقة وتجري تخريب اقتصادها لصالح نمو رأسمالي تابع ، يأخذ من الرأسمالية مظهرها الاستهلاكي -

يستطيع الباحث ، حين يطرح على نفسه سؤالا محددا عن دور المجلات الثقافية في حركة التحرر الوطني ، ان يعيل هذا السؤال الى شبكة معقدة من الاسئلة ، تعيد بحث المفاهيم الاساسية التي يفترضها هذا العنوان ، وتتداخل مع مستويات تاريخية ، سياسية ، ايديولوجية عديدة . لكن هذه الاسئلة تقود بدورها الى نقطة مركزية اساسية ، هي مسألة تكون المثقف العربي الحديث . اي ضمن اية اتجاهات او مسارات جرت عملية التكون هذه ، وقادت نحو اشكال تعبيرية جديدة في الثقافة العربية ؟ غير ان طرح مسألة التكون هذه ، لا يمكن ان يجدي الا داخل حقل الممارسة الاجتماعية الذي جرت فيه هذه العملية . هنا يصود السؤال ليربط بين طرفيه بشكل دقيق . فاذا كانت مسألة تكون المثقف العربي الحديث تجيب على الشق الاول من السؤال - دور المجلات - على اعتبار انها احد الاشكال التعبيرية الحديثة ، فان حقل الممارسة الاجتماعية يفترض الشق الثاني من نفس السؤال - العلاقة بحركة التحرر الوطني - .

ان المجلة الثقافية - التي يصدرها مثقفون بالضرورة - سوف تناقش من ضمن المهمات التي وجد المثقفون انفسهم امامها . واذا كانت هذه المهمات ليست من وضعهم ، فان دراسة مساهمتهم فيها هو امر يسمح لدراسة المستوى الايديولوجي والصراعات التي تخاض فيها ، بالتقدم في سبيل الكشف عن عنصرين اساسيين :
١ - الدور الواقعي الذي تستطيع حركة ثقافية ان تلعبه في بلاد تابعة حدود هذا الدور والافاقه .

٢ - اولى عملية الصدام مع الغرب الرأسمالي ، التي افرزت على المستوى الايديولوجي اهم جدل داخل الحقل الايديولوجي العربي . ان دراسة هذين العنصرين لا يمكن ان تتم من خلال المجلة الثقافية بوصفها اطارا . بل بوصفها مؤشرا . فلقد عبرت حركة الثقافة العربية الحديثة عن نفسها باكثر من شكل وطريقة . لذلك تصبغ المجلة الثقافية مجرد مؤشر يسمح لنا باحاطة اولية - منهجية بموضوع البحث . يقود هذا الافتراض الى وضع اطار خاص لمسار هذه الدراسة . فهي ليست دراسة تطويرية ، تاريخية ، تهتم بدراسة تاريخية للخط الذي قطعته حركة الثقافة العربية من خلال مجلاتها . بل هي اقل طموحا واكثر تحديدا . انها تريد البحث عن التيارات الايديولوجية الاساسية وشروط ولادتها ، لتقوم بعد ذلك باقتراح فلجة داخلية لحركة الصراع داخل المستوى الايديولوجي . من هنا ، تصبغ النقاط التطورية - التاريخية مداخل ، تسمح للتحليل بالتقدم في سبيل تقديم اقتراح منهجي اساسا . اي ان الهدف المنهجي الذي

التبادلي - ويفرض فياها للتصنيع الذي هو اساس اية نهضة فعلية (٣) . من هنا كان الطابع التهميشي الذي فرض على هذا المجتمع ليقى خارج القدرة على تقرير مصيره بنفسه . هذا الطابع الصدامي المباشر فرض على النهضة العامة طابعين متلازمين :

١ - ان نشأ داخل توجه دولة مركزية . والنموذج الامثل هو التوجه النهضوي لدولة محمد علي ، حيث قامت الدولة بضغط عمليتي التنفيذ والثقافة ، ضبطا شبه كامل .

٢ - التطلع الى نموذج التقدم « الغربي » ابتداء بتنظيم الجيش وحتى التعليم العالمي (٤)

ضمن هذا التوجه العام ، كان نموذج المثقف هو المثقف التقليدي - علم الدين - الذي يضع نفسه في خدمة الدولة . ويعطينا نموذج رفاعة رافع الطهطاوي مثلا حيا وبالغ الدلالة على قدرة التكيف مع مستلزمات نهضة اولوية (٥) .

ان صيحة النهضة الاولى التي اطلقها الطهطاوي ورجال البعثات الذين ارسلهم محمد علي للدراسة في اوروبا ، انمرت اجابسات محددة على مستلزمات نهضة وطنية عامة . الترجمة ، معاهد التعليم العليا الحديثة . تنظيم الجيش الحديث وقادت الى طرح اسئلة محددة تمس المستوى الايديولوجي من داخل عناصره السائدة . اي ان الدولة الاقطاعية المركزية التي بناها محمد علي لم تطرح في بنيتها الطبقية والسياسية اسئلة شاملة تمس الموروث الثقافي ، بل بقي تاملها مع هذا الموروث السائد من ضمن اعادة تنظيمه ليصبح اكثر قابلية لخدمة هذه الدولة واهدافها الطموحة ، وادخلت عليه مفاهيم جديدة ، هي ثمرة الاحتكاك مع النموذج الغربي الذي سيصبح الخطر الوحيد على هذه الدولة . تجعل هذه المرحلة المبكرة دلالة هامة على المسار الذي قد تكون في داخله المثقف . فهو يتكون من الداخل ، اي من مهمات محددة تفرضها ضرورات بناء دولة . وهو يقوم بالعلاقة الوثيقة مع هذه الدولة بمحاولة تحريفية تظل العديد من مرافق الحياة ، دون ان تحدث خلخلة فكرية حادة ، اي دون ان يبدأ الفرز الايديولوجي العنيف الذي سيحصل لاحقا كمؤثر لمرعات طبقية عنيفة ، من ضمن مهمة التحرر الوطني . لكن النهاية المبكرة لدولة محمد علي ، تعرضها لهجمة الاوروبية الشاملة ، ومن ثم تفسخها الداخلي ، سوف يحكم على هذه التجربة الاولى بالفشل . وستبقى العامل الاساسي الذي ستنمو في ظلالة دعوات الاصلاح والنهضة التي سوف تخاض الان خارج السلطة بل ضمها (٦) .

يقدم هشام شرابي في خاتمة بحثه « المثقفون العرب والغرب » مقارنة بين النهضة اليابانية التي تمثلت في الشعار التاليفي الاتي: « الاخلاق الشرقية والعلوم الغربية » وبين النهضة العربية التي لم تتحقق لانها « لم تستطع بغية المحافظة على القيم التقليدية وتبني الوسائل العلمية ان تتجنب التناقضات المتأصلة في هذا النمط من المسمى » . مهملات النقطة الاساسية وهي تعرض المنطقة العربية للغزو الامبريالي المبكر الذي كان في اساسه عدم السماح لهذا التطور . (٧)

اذا كانت هذه المحاولة الاولى قد سقطت بفعل العديد من العوامل - العامل الخارجي - الذي هو في اساس اخلالها الداخلي ، فانها قدمت العديد من النماذج الواقعية - السياسية والثقافية ، للقدرة على تمثل مقتضيات الخروج من الانماط السائدة . وتعطي الوقائع المصرية وهي الجريدة الرسمية التي انشأتها الدولة ، قدرة على الاستفادة من كل مقتضيات العناصر الثقافية الحديثة ، حين تحولت بفضل الطهطاوي وجماعته الى منبر فكري ، ثقافي ، بالاضافة الى كونها جريدة الدولة الرسمية .

لقد كان الاحتلال الانكليزي لمر ، والتفلال الاستعماري في بقية

اجزاء المنطقة العربية ، احتلالا مباشرا (تونس ، الجزائر) وغير مباشر (لبنان) هو الحافز المركزي لارتفاع الاصوات المطالبة بالخروج من دوامة الاحتلال الى افق استقلالي وطني . ونتيجة للعوامل المشابهة في تكوين الخريطة الطبقية والثقافية ، فقد كان هناك ردان اساسيان على هذا الواقع .

الرد التقليدي

وهذه ليست تسمية مطابقة ، انما نستعملها هنا للاشارة الى احد اكثر اشكال الرد فعالية ، وهو الرد الذي يحتمي بالدين والتراث بوصفهما عاملين موحدين ايدولوجيا واجتماعيا . وقد اتسم هذا الرد اساسا بتعبيره عن الفئات الاجتماعية والطبقات التي لم يستطع الاحتلال تحويل المجاري الرئيسية في نمط حياتها ، او التي دمرها بشكل كامل . كما اتسم بكون مثقفيه ، هم المثقفين العضويين التقليديين منذ زمن بعيد ، والقادرون على تعبئته باسم قيم لا تزال فاعلة ومحركة .

الرد الحديث

وهو محاولة التمثل لجميع القيم الليبرالية الغربية واعتبارها مقياسا اساسيا في عملية النهضة الوطنية المقترضة . وقد حاول هذا التيار الذي نما اساسا في كنف الارشادات الاجنبية وفي معاهدها العالية ادخال قيم العلوم الوضعية في الفكر العربي الحديث . قد يبدو هذا التقسيم مغرطا في عموميته ، لانه لا يميز داخل هذين الردين ، الفروقات والاختلافات الكبيرة التي تقسمها ايضا . انه مجرد تقسيم وصفي ، يأخذ الظاهرة الخارجية دون ان يخلها ودون ان يعيد انتاجها نظريا على ضوء تحليل طبقي دقيق . لكن هذا المؤثر الوضعي يسمح برصد حركة جذب عنيفة تعرض لها المستوى الايديولوجي فيما هو يحاول طرح اسئلته (٨) . تتعدد داخل هذين المستويين المواقف . ففي حين ينطلق الكواكبي من ضرورة الاستقلال العربي وعودة الخلافة الى العرب ، تولد حركة الاخوان المسلمين من نفس التيار . وفي حين تقود عملية شبلي الشميل الى نوع من الدفاع عن السيطرة الانكليزية ، يرتفع صوت سلامة موسى داعيا الى الاشتراكية ، واما للكثير من الحركات الثورية العربية .

ان عدم مطابقة النمذجة ، تعود في الدرجة الاولى الى صعوبة اية نمذجة لمرحلة مليئة بالصراعات ، ومتضاربة ، مرحلة تفتت اجتماعية ، تفتت فيها مقولة غدامشي « للمثقف العضوي » مدلولاتها المباشرة ، لتصبح مؤشرا للعديد من اشكال العضوية التي تبقى في جنل مع نفسها ، طالما بقيت الاسئلة تطرح كرد فعل ، يفترض نموذجا متقدما .

اذا حاولنا ان نتوقف في هذا التحليل عند هذه النقطة ، لنقترح نمذجة اخرى تبدو اكثر مطابقة . مثقف المدينة ، اي مثقف الاشكال الرأسمالية الحديثة التي بدأت تفزو المنطقة - التحديث والتعلق بالنموذج الغربي . ومثقف الريف اي مثقف المناطق التقليدية التي لم تمسها رأسمالية المراكز الامبريالية الغازية - الاصاله ، التراث ، الدين ، العودة الى الاسلام . قد تبدو هذه النمذجة اكثر قدرة على الافناع ، لانها تنطلق من فرضية تضاد بين المدينة والريف ، او من فرضية تطور غير متناسق بينهما . لكنها في الواقع تصطدم بعقبتين :

١ - صعوبة التمييز الحقيقي على هذا المستوى بين المدينة والريف . فالمدينة الجديدة التي توسعت واخذت ملامحها الجديدة مع اشكال الهيمنة الامبريالية اصبحت امتدادا للريف . اي ان علاقات الريف امتدت لتطبع المدينة بطابعها ، ولتقيم تميزا مصطنعا بين علاقات المدينة وعلاقات الريف . ان هذه العقبة التي نستخلصها من تحليل اولي لواقع هذا الانقسام لا تفي بل تلغي شكله الثقافي المفترض في هذه النمذجة .

٢ - لقد كانت المدة الحرفية ، اكثر المناطق تضربا بالشكل الاقتصادي للهيمنة الامبريالية . لذلك ارتفعت فيها دعوات الاصولية والتراث والرد على الهجمة الغربية .

لكن يبقى هذان النموذجان كافتراضين ممكنين ، يسمحان بتلمس اولي لمآزق البحث الايدولوجي عن مخرج من حالة الخضوع للهمنة الخارجية ، لكنهما يقيان غير مطابقين ، لانهما يأخذان من الظاهرة احد اشكالها ، دون القدرة على الاحاطة بها بشكل كامل .

ان مآزق هذين الافتراحيين ، هو مآزق منهجي . فهما يستميران في اخر تحليل نموذجاً جاهزاً ويحاولان تطبيقه في بلاد لم تنشأ فيها بورجوازية وطنية تقود عملية الاستقلال الوطني ، وتستكمل مهام التصنيع والبناء الديمقراطي . لذلك كانت الحاجة فيها ماسة الى جبهة عريضة توحد فلاحي الريف بعمال وصغار بورجوازي المدن ، لتقوم هي بهذه المهام (٩) .

ان هذه النماذج الثقافية التي حاولت بنسب متفاوتة ان تطرح مسألة الاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي . يمكن اعادة تصنيفها من داخل المهمات التي طرحتها على نفسها . اذ من داخل هذه المهمات ، وفي المقرب الاساسي الذي افترض يمكن للتصنيف العلمي ان يتقدم في اتجاه اكثر دقة .

قد تصلح شخصية جمال الدين الافغاني ، بنزعتها التراجيدية ، مثالا حيا لدراسة هذا المقرب . فعلى الرغم من الفموض الذي يكتنف شخصيته ، استطاع الافغاني ان يحول منزله في القاهرة الى جامعة حقيقية ، يتلقى طلابها العلم ، ويخططون او يستشرفون ممارسة سياسية فعالة محددة ، ثم كانت « العروة الوثقى » (١٠) اهم المجالات العربية واكثرها دلالة تاريخية التي اصدرها الافغاني بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده في باريس ، الصوت المركزي الذي استطاع ان يطرح الاسئلة التي تواجه نهضة الشرق . نستطيع ان نلخص هذه الاسئلة في ثلاثة محاور مركزية :

١ - مفهوم الشرق ، وضرورة استقلاله . ومفهوم القوميات المتعددة التي لا تمنع وحدته .

٢ - يقيم الافغاني هذه الوحدة على اساس الجامعة الاسلامية ، التي هي جامعة الشعوب المضطهدة والسوقوفة في مواجهة الغرب .

٣ - الدعوة الى الاصالة الاسلامية ، التي لا تتنافى مع العلم الحديث ، بل تحمل القدرة على استيعابه في داخلها .

نستطيع معالجة هذه المحاور الثلاثة من اكثر من وجهة :

نستطيع ان نضع مقبلاً حديثاً ، علماً ، ونقول انها ليست اكثر من محاولة توفيقية جديدة ، او نذهب مذهب هاملتون جب في ان هذه الحركة لم تطرح اسئلة جذرية على معتقداتها الاساسية .

ونستطيع كذلك النظر اليها من موقع تناقضاتها الداخلية ، وعدم تماسكها المنطقي فيما ذهبت اليه ، هجوم على المادية ثم كيل الذبح للاشتركية . ونحكم عليها من هذه الزاوية « العلمية » بعدم التماسك المنهجي الصارم وبالتالي بعدم الفعالية الحقيقية .

قد يكون هناك الكثير من الصحة المنطقية في هذين الموقنين . لكن مقتلهما الاساسي ، هو في عدم قدرتهما على التعامل مع هذه الظاهرة الايدولوجية ، بوصفها ظاهرة تاريخية . اذ ان دراسة هذه الظاهرة تاريخياً تفترض دراسة ظروف هزيمتها ، والمؤثرات التي تستخدمها من هذه الهزيمة . فلقد لعبت دوراً سياسياً ، ايدولوجياً باعتبارها موحداً اجتماعياً لجميع طبقات الامة ذات المصلحة في رفض الاحتلال الغربي . هذا النص ، عنصر التوحيد الاجتماعي . يفترض نظرياً اصلاحات من طبيعة اسيوية - المستبد العادل - وتساقطه هو صدى محاولة الخروج من الواقع السابق نتيجة الحصار والتطويق الامبرياليين . لذلك كانت هذه الدعوة تفتقد عامودها الفكري بعد فشل الاصلاح اسيوي (محمد علي) وهزيمة الثورة العسكرية (احمد

عربي) . من هنا طابعها التراجيدي الهائل وعضويتها ، اللاصقة على مجتمع يتمثل بحثاً عن مخرج من مآزق تاريخي فرض عليه . لذلك كان للافغاني اثر اجتماعي وسياسي بالغ الخطورة (١١) . ليست خطورة هذا الاثر المباشرة هي المسألة الاساسية وحدها بل انه كان صوتاً موحداً ، انفجرت بفشل دعوته وطموحاته الاصلاحية الثورية ، تلك الوحيدة العضوية التي تبحث عنها الممارسة الايدولوجية النضالية ، فجمعية العروة الوثقى التي كانت هذه المجلة التي تصدر في باريس ناطقة باسمها انتهى دورها بانشطار فكر الافغاني فيما هو في ذروة الفشل ميتا في الاستانة وطبعت الفكر العربي الحديث بطابعها الشمولي .

ان التقييم السياسي لهذه المرحلة لا بد وان يلاحظ ذلك الوعي الهائل بضرورة الخلاص الوطني الذي تجسد على المستوى الثقافي بمحاولتين : رفاعة الطهطاوي ، حيث كان التلميح ونشر الثقافة ميدان فعاليته المباشرة ارتباطاً بالسلطة . والافغاني الذي يعبر عن فراغ في السلطة الوطنية وعن عدم القدرة على توحيد الشعب . ويشير فشل هاتين المحاولتين الى عنف الاحتلال الرأسمالي ويؤشر لنموذجية جديدة فرضت نفسها على جميع مستويات الواقع العربي .

هل يعني هذا ان دور العروة الوثقى المطابق - التراجيدي ، قد شفر بانتهاه هذه المجلة ؟

تصعب الاجابة على هذا السؤال بسبب تشابك المرحلة الجديدة ، مرحلة الانقسامات الطبقية والصراعات التي لا تزال مرتبطة بمهام المرحلة .

فنحن حين اخذنا نموذج « العروة الوثقى » لم يكن غائباً عن تصورنا غياب بيروت عن هذه الصورة . في بيروت في هذه المرحلة كانت لا تزال اسيرة السيطرة العثمانية المباشرة . وكانت الثقافة فيها مرتبطة اوثق ارتباط بالرسائل الاجنبية . لذلك كانت اصواتها الثقافية تفترض النهضة القومية ضمن تصور ليبرالي . لكن هذا التصور لم يكن وحده في الساحة . فالثقافة « الاسلامية » كانت لا تزال عميقة الصلة بفئات المثقفين . حيث ستخرج من لبنان مجلة (المآثر) التي سوف تأخذ على عاتقها تكملة رسالة محمد عبده من الموقع السلفي التقليدي . ومن جموع المثقفين السوريين واللبنانيين المهاجرين الى مصر سوف ترتفع الدعوات الليبرالية والعلمية ، وسوف يبدأ البحث المصني عن المطابقة الجديدة مع فكر سلامة موسى والفكر الماركسي المعاصر من بعده .

ان الهاجس الاساسي الذي يسم دور المثقف في حركة التحرر الوطني هو بحثه عن هذه المطابقة ، عن عضويته داخل الحركة الوطنية . وعن تلك الجبهة العريضة التي ستقود مرحلة الاستقلال . في هذا الواقع الذي تفتته الامبريالية وتعيد الرأسمالية صياغة خريطة الطبقية ، كان الفكر الوطني يبحث بالتعلم والممارسة عن حلول جذرية جديدة ، تأخذ مكان الطرح المركزي الذي قدمه الافغاني . من هنا التعدد ، ومن هنا الصراعات ، ومن هنا ايضا تلك العلاقة المترجحة بين ان تكون مثقفاً عضواً ، او ان تبقى تحمل قيماً لا تطابق . الفكر الوحيد الاقرب الى المطابقة كان فكر ميشال شيعا ومن بعده الندوة اللبنانية التي تصدر مجلة بهذا الاسم . حيث كان هذا الفكر وثير الارتباط بسلطة التجار الذين امسكوا بالسلطة منذ الاستقلال . فجاء فكر الندوة مع شيعا اساساً مطابقاً لمصلحة اقلية طبقية تسيب تنظيم هيكل اجتماعي ليطلق مصالحها الاقتصادية والطائفية .

البحث عن نقاط الارتكاز

ان التعدد الذي اشرنا اليه هو تعبير عن مسيرة ثقافية عامة . مسيرة محاولة الوصول الى فكر يوحد تحت شعار نهضة وطنية شاملة . واذا كانت مقدمات هذا الفكر - جبران خليل جبران في نبرته الاجتماعية وفي تطلعه الفني الشامل - فرح انطون في نظريته الاشتراكية - شبلي الشميل في فكره العلمي - قد عبرت عن ازدواجية

في التطلع ، عدم القدرة على التخلص من النموذج الغربي ، فانها في المقابل ساهمت ايجابيا في حركة صراع وطني - طبقي لا تزال تخاض الى اليوم . ان هذا الفكر هو تصوير عن تطلع نحو نقطة ارتكاز ثابتة تتجاوز اوتوقراطية الدولة وبيروقراطيتها الى حركة جماهيرية .

حين نطرح عوامل ومسار تطور حركة المثقفين ، وارتباطها الدائم بحركة الطبقات الاجتماعية فاننا نطرح في الواقع خطوطا وطروحات فكرية متعددة وجدت في مجلات ثقافية منابر لها . فاصبحت هذه المجلات عناوين فكرية لمرحلة كاملة .

النهضة وخطوط الصراع

قد يبدو هذا التحليل خارج موضوع بحثنا . فهو نوعنا هو عن لبنان ، ونحن نتكلم عن حركة الثقافة العربية بأسرها . ان هذا الخروج عن الموضوع ، هو الموضوع نفسه ، فالثقافة « اللبنانية » الخاصة ثقافة غير موجودة اساسا . هناك فكر نظري أنتج ايدولوجية الطبقة السائدة ، لكنه لا علاقة له بحركة التحرر العربية الا سلبا . وهو على اي حال لم يشكل مجرى رئيسيا مؤثرا في حركة هذه الثقافة . من هنا فوحدة السياق الايدولوجية العامة ، جعلت من الثقافة في بيروت امتدادا داخل حقل الثقافة العربية عامة . لذلك كان هذا المدخل ضروريا لفهم ادالية محاولات الانخراط التي تحاولها التيارات الثقافية هنا .

المجلة الثقافية هي تيار او اكثر من تيار واحد . تصطلح على رؤية عامة ، وعلى دور تريد ان تلعبه . لذلك فهي تشكل وحدة سياق في طرح المسائل التي تناولها . او في بعض الحالات النادرة تشكل ارض حوار اكثر من تيار واحد يجري لقاءها على فهم محدد لمرحلة معينة . هكذا بشكل عام تستطيع المجلة الثقافية ان تلعب دورا في الحركة الوطنية بشكل سياسي مباشر او ان تلعب هذا الدور بشكل ثقافي ، فتساهم في بلورة رؤية محددة او بعض عناصر هذه الرؤية .

اذا كان هذا التحديد صحيحا او قريبا من الصحة ، فان المجلة الثقافية تكون احدى الوسائل التي تستخدمها حركة الصراعات الطبقيّة في بلورة مفاهيمها المتضاربة ووسيلة اتصال واسعة داخل وسط معين ، يضيق او يتسع تبعا لاسلوبية المألجة وارتفاع المستوى الثقافي العام .

المجلات الثقافية في بيروت كثيرة العدد . لان بيروت ، بوصفها وسيطا تجاريا تلعب ايضا دور الوسيط الثقافي . كما ان الحرية النسبية التي فرضها واقع الانقسامات الطائفية اللبنانية يسمح بحرية ثقافية وسياسية . هذا دون ان ننسى الدور الذي لعبته الحركة الوطنية في توسيع مدى هذه الحرية . لذلك كانت هذه المدينة ميدان صراع ثقافي - سياسي ، تشارك فيه اطراف عربية مختلفة . وكانت محاولة قراءة ادالية التداخل الايدولوجي التي يقوم بها المثقفون مع حركة الصراعات الطبقيّة - الوطنية تحمل دلالات عامة .

اذا حاولنا دراسة المجلات الثقافية اللبنانية منذ الاربعينات لاكتشفنا انها تمثل واقع التمرد الايدولوجي العربي .

لكننا هنا سوف نقتصر على نماذج من اهم هذه المجلات ، لندرس ادالية الانخراط التي تكلمنا عنها سابقا .

— ١ —

في العدد الاول من مجلة « الطريق » (١٢) نقرأ اول محاولة متكاملة لتحديد دور المثقف . ففي مقال موقع باسم « باحث عربي » حول « دور المثقفين العرب في الحياة القومية العربية » يطرح البحث اشكالية واضحة منذ البداية ، يتساءل « هل للمثقفين العرب مهمة قائمة بذاتها في المجتمع يقومون بها كجماعة مستقلة عن بقية جماعات الامة ؟ » . حول هذا السؤال تاتي الاجابة الواضحة التي

تحاول لاول مرة فهم علاقة المثقف العضوية بالطبقات الاجتماعية : « فكل مثقف عندما يفكر او يتكلم او يكتب انما يفتح في الواقع عن عقلية طبقة او جماعة اخرى من اعضاء مجتمعه ويمثل مصالحها ويخدم هذه المصالح » .

ثم يحلل هذا المصطلح باربعة عناصر :

١ - تضم الجماعة المثقفة عناصر من جميع الطبقات . فهي ليست طبقة .

٢ - يرمز زهم التنامي الثقافي الى انخفاض مستوى التعليم العام في المجتمع .

٣ - ليس للمثقفين اهداف ومصالح مستقلة .

٤ - يطرحون المسائل بطرائق مختلفة تخدم اطراف الصراع .

حول هذا التحليل - رغم تبسيطه ، الذي يجب عدم النظر اليها بشكل مطلق ، بل النظر اليها في الغرض الذي كتبه فيه ، نجد مجلة « الطريق » منذ العدد الاول لصدورها خطا فكريا واضحا يبي التزاه لمصالح الطبقة العاملة ، وبقية الطبقات الشعبية . وكتعبير عن هذا الالتزام نقرأ على صفحاتها مقالات رثيف خوري وتعريفه لآثر الثورة الفرنسية في الفكر العربي الحديث ، ونقرأ لعمر فاحوري احد اكبر الادباء اللبنانيين في الجيل السابق ، ويكتب اطون ثابت ، وكوكبة من المفكرين والادباء الطليعيين ، الذين يخطبون في الثقافة العربية محاولات جديدة لكيفية فهم المثقف لدوره الاجتماعي ، والامر الذي يجعل دلالة هوكون هذه المجلة قد صدرت بهدف سياسي - ثقافي مزدوج ، فهي لا تعزل الثقافة عن النضال السياسي ، بل تعبرها وحسدة عضوية .

ل نحاول هنا تقيما شاملا لدور مجلة « الطريق » لكننا نستطيع ان نرفع اربع ملاحظات :

١ - لقد مثلت هذه المجلة التيار الماركسي في الفكر العربي . هذا التيار الذي حاول منذ البداية التعريف بالحركة الثورية العالمة ، وطرح مسألة النضال الوطني المركزي ، بوصفها جزءا من مهمات هذه الثورة . وقد قدمت تعريفا بالفكر الماركسي ، في اللغة العربية ، يتجاوز التعريفات التي قدم بها هذا الفكر من قبل .

٢ - ركزت المجلة منذ بداية صدورها على انفتاح ثقافي ، على الادب الاجنبي . فمنذ اعدادها الاولى نقرأ ادبا اجنبيا مترجما ينتمي الى تيار الواقعية الاشتراكية ، غوركي ، اهدنبورغ .. كما جرى التركيز على قيم الحرية في الثورة الفرنسية .

٣ - منذ اعدادها الاولى ، وهي تفتح صفحاتها لقراءات من التراث العربي ، كلية ودعنة ، الشريف الرضي ، العفد الفريد . الخ ... هذا التوجه ، يرفد التوجيهين الاولين بقاعدته التراثية ، حيث لا يصبح الانفتاح مجرد اغتراب ثقافي لا جنود له .

٤ - طرح مسألة الاستقلال الوطني والنضال الاجتماعي بشكل متناسق . واذا كان نقاش المقتربات التي قدمت مجلة الطريق لهذه المسألة تدخل في نطاق مناقشة الخط السياسي للحزب الشيوعي الذي يصدرها ، فاننا نشير فقط الى هذا الطرح والى المفرد الايجابي المبني الذي يقدمه هذا الربط .

ان هذه التوجهات التي تقود خط مجلة ثقافية تطرح مسألة قدرتها على المساهمة في حركة الصراع الوطني ، وكانها مسألة محلولة سلفا . غير ان المسألة لاساسية كانت ولا تزال بالنسبة للفكر الماركسي هي في قدراته على صياغة خط وطني ينطلق من الصراعات الطبقيّة المحددة ليستشرف الافق الجبهوي الذي يوحد جماع الطبقات الوطنية في توجه وحدوي عربي هو المخرج الوحيد من التبعية ومن عوامل التفتت الذي تقترضها .

الممارسة الثورية ، داخل هوموم الطبقات المسخوفة . فبقيت الحدائسة تنتظر وهي تحاول الامتداد حتى وصلت الى الخيار الختمي ، خيار الراديكالية .

ان الخروج من المازق الليبرالي ، غير اختيار الطريق الراديكالي ، هو الاضافة التي قدمها مجله « موافق » (10) فهذه المجله ، على رغم بعدد موافق فيها ، والارضي الليبرالية التي تنطلق منها ، تعتمد في سبيل الوصول الى موقف راديكالي ، يحول في الواقع اضافتها الابداعية المميزة في ادبنا المعاصر . اي ان الممارسة النقدية الجديرة التي حاولتها هذه المجله منذ صدورهما هي تعبير عن محاولة انخراط جديده داخل المدى الثوري الذي فتحت حركة النضال الفلسطينية المسلحة . لكن هذا الانخراط ، كان من طبيعة تعاقبية خاصة . من هنا نأت الثقافة الجديدة مطالبة بنظري الكثير من الخواجز في سبيل الوصول الى فهم انواع والعمل على تغييره .

في هذا العرض السريع الذي قدمناه ، لاهم المجالات الثقافية التي صدر في بيروت ، والتي تشكل عناصر استقطاب فكرية وايدولوجية هامة ، جرى اهمال الكثير من النقاط التفصيلية التي لا تزال تحتاج الى دراسة خاصة بها . الذي حاولناه هنا هو محاولة رسم خط بياني لمسار الطرح الذي تقدمه هذه المجالات في خريطة ثقافية شاسعة . واذا كنا قد اهلنا عددا من المجالات التي لعبت دورا هاما ((الادب)) « المكشوف » واليوم « افاق » فان الاساسي بالنسبة لنا هو الكشف من ضمن دراسة هذه التيارات الثقافية عن ادالية البحث عن دور داخل حركة التحرر .

الدور الممكن

يمكن ان نستنتج من خلال هذه الملاحظات اربع نقاط اساسية :
١ - لقد عبرت هذه المجالات بنسب متفاوتة ، ومن مواقع مختلفة عن ضرورات التغيير الاجتماعي ، اذ ينظر غالبا الى هذا التغيير بوصفه تحديا للبناء . غير ان مواقع النظر الى كيفية هذا التغيير ودلالته يختلف باختلاف الموقع الايدولوجي - الطبقي .

ففي حين يرتفع طرح تحديث المجتمع - ادخال القيم الليبرالية اليه - يرتفع في المقابل شعار الثورة الاجتماعية بوصفها مدخلا لهذه العملية . اذا كان هذان الشعاران ، ميداني استقطاب ، فانهما غير جامدين . اي ان طرفيهما لا يعبران عن ثابت لا يتغير . بل هما داخل جدل البحث الذي يؤدي الى نتائج متشابهة في بعض الاحيان رغم تباعد نقاط النطلق او الى نتائج متباينة رغم الانطلاق من نقطة واحدة (١٦) .

٢ - لقد عبرت هذه التيارات عن ضرورة توير وتجديد الكتابة . قدمت محاولات عديدة في النقد والشعر والقصة والرواية تميز في الواقع عن قدرة على الوصول الى التجاوز الضروري . ان هذا الهاجس المركزي الذي يوجد ، يحمل دلالة عامة . دلالة البحث عن طرائق جديدة للوصول الى تعبير جديد عن الذات .

٣ - المجلة الثقافية هي اداة تعبير حديثة ، تجد اليوم مبرر انتشارها في تزايد وتأثر التعليم ، وفي نمو المدن ، والعودة الى ممارسة ثقافة اجتماعية عامة . لكن داخل هذه الاداة الحديثة ، وجد الفكر نفسه في عملية بحث مضمينة عن اصله ، اي قدرته على الاجابة على اسئلة الواقع الحادة .

من هنا ، هذه الانعطافات داخل الرؤية السياسية والثقافية في هذه المنابر الثقافية .

واذا كان سقوط مجلة « حوار » قد كشف عن ازمة الفكر الاستفراحي التحديثي وعن عدم جدارته ، فانها التحدي لقدرة اطراف الطبقات الوطنية على صياغة اجابتها من موقع ثوري .

قد تكون افتتاحية د . سهيل ادريس للمسد الاول من مجلة « الاداب » (١٢) اكثر الافاسحات تحديدا للهدف المفترض لمجلة ثقافية . فهو يصع المجله التي يتصرف على تحريرها في صميم الهوموم القومي ، « ينبغي على الادب ان لا يكون منفردا عن المجتمع الذي يعيش فيه ، فان الادب الذي يدعو اليه المجله ونسجته هو ادب الالتزام الذي ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه » . ثم يضع هدفا ادبيا واضحا « النهوض بالحركة التناسيه ، ودفع الافلام الجديدة الى الكناية » . ولا ينسى النموذج . « وهذا النشاط جميعه ، جدير به ان يعطي الاجنبي فكرة صحيحة عن الادب العربي الحديث ومشاركته في الحركة الادبية العالمية » .

حول هذا الهدف ، سوف تصدر مجلة الاداب ، مرتبطة بشكل وثيق بانتيار الوطني القومي ، الذي سيبولور ليأخذ وجهته المحددة مع صعود الحركة الناصرية بوصفها حركة وحدوية معادية للاستعمار .

لذلك بقيت « الاداب » مخلصه لهذا الوجه العام . اطار قومي عريض معاد للاستعمار . وحاولت من ضمنه المساهمة في هذه الحركة عبر افلام كتاب تعاقبوا على الكتابة فيها . ومن خلال نتاج روائي وقصصي وشعري . وعلى صفحاتها خيقت المارك الادبية ، لتصبح فيما بعد منبرا للجهة الفنية الواقعية ، بعد ان توقفت الحملات المتبادلة والصراعات بين الشيوعيين والقوميين . اما مساهمتها في حمل الترجمة ، فقد تركزت حول الفكر الوجودي الفرنسي ، سارتر ، بوفوار ، كامو وغيرهم .

في مجلة الاداب ، كان التوجه واضحا . موقف توفيق من التراث ، ودعوة الى التغيير الاجتماعي والتحديث . وصوت الهوموم الوطنية وقد اخذت اشكالا مختلفة وبقيت في اطار تقديم التطلعات ، لكنسه محافظ في نظره الاساسية .

حملت مجلة « شعر » (١٤) هم التجديد الجذري منذ البداية ، في التي اوصلت بدايات التحول في بنية القصيدة العربية الى تجديد كامل ، ينطلق من الانجاز الشعري العربي ، ليقوم بشوير الادوات الفنية في اللغة العربية . فالشعر الجديد ، يتخلق حول رموز حضارية قديمة ، رمز البحث بشكل اساسي - لينقل هوموم الثقافة العربية في بحثها عن وجهتها الجديدة .

ان اهمية مجلة « شعر » هي في كونها دفعت المقدمات النظرية الى نهايتها المنطقية ، تابعت الخط التجديدي الجبراني في المستوى الشكلي مع خفوت واضح للمسالة الاجتماعية التي بقيت مضمرة داخل ارادة التجاوز . لذلك كان لا بد لهذه الحركة من الوصول الى الطريق المسدود . اما الذهاب بعيدا في اكتشاف الذات ، وصولا الى موقف جذري متكامل لا يتوقف عند هم تعبيري ، بل يتجاوزه في عودة الى الذات التاريخية ، واما التوقف عن الصدور .

ان الموقف الليبرالي الواضح الذي انطلقت منه مجلة شعر كان هي اساس مازقها . فالخدمات التي قدمتها للثقافة العربية بالقصة الالهية ، انفتاح ثقافي ملهمل ، طرح العديد من الاسئلة ، محاولة كسر جميع اشكال الرتابة . لكن الموقف الليبرالي ، حين لا يتجذر في اتجاه ثوري ، يفت اصام مازقه . مازق الحدائسة التي تفقد موطئ قدميها .

في الشعر ، يصعب الحديث عن دور سياسي مباشر الا في لحظات الانفجارات الثورية الكبرى . فالشعر يسقي جزءا من المستوى الايدولوجي الذي يساهم في حركة الصراعات الطبقيه . لكن مساهمته ليست دائما مباشرة . ليس هذا واقع مجلة شعر . لكنها حين افترضت الشعر معرفة ، لم تذهب بهذا الافتراض حتى النهاية .

الحقل الايديولوجي العربي .

٩ - يقدم محمود امين العالم في تعقيبه على بحث د . انور عبدالملك « الخصوصية والاصالة » المقدم الى ندوة الكويت « ازمة التطور الحضاري العربي » نيسان ١٩٧٤ م الى ضرورة الكشف داخل تيارى الاصولية وانحدائة عن مصالح الطبقات الاجتماعية المتصارعة . في الاداب ١٠ ايار ١٩٧٤ .

١٠ - جمال الدين الافغاني ومحمد عبده : العروة الوثقى : دار الكاتب العربي - بيروت - الطبعة الاولى ١٩٧٠ .

١١ - يقول الشيخ مصطفى عبدالرازق في مقدمته للعروة الوثقى، المرجع السابق، « اعلن في الجريدة الرسمية المصرية ان كل من توجد عنده العروة الوثقى يقدم خمسة جنيهات مهرة الى خمسة وعشرين جنينها » .

١٢ - صدر العدد الاول من مجلة الطريق في بيروت - ٢٠ كانون الاول ١٩٤١ - وهي مجلة « تصدرها عصبة مكافحة النازين والفاشستية في سوريا ولبنان » بادارة عمر فاخوري وانظون ثابت .

١٣ - صدر العدد الاول من مجلة الاداب في ١ كانون الثاني ١٩٥٣ . وكان يراس تحريرها د . سهيل ادريس الذي لا يزال الى الان يشغل هذه المهمة .

١٤ - صدر العدد الاول من مجلة شعر في شتاء ١٩٥٧ . وكان يراس تحريرها الشاعر يوسف الخال . وقد صدرت بمقدمة للكيش . ١٥ - صدرت مواقف سنة ١٩٦٨ . ويراس تحريرها الشاعر ادونيس

١٦ - تقدم مجلة « شؤون فلسطينية » مثالا حيا عن قدرة الفكر الملتزم على التوظيف داخل حركة ثورية . من هنا تعدها الفكري وصرامتها العلمية .

صدرت حديثا عن الدار الاهلية

للنشر والتوزيع - بيروت

المصافير

المجموعة القصصية الثالثة

للقاص السوري

ياسين رفاعية

ه ل ل

ص ١٣٠

٤ - تشير هذه المسيرة الثقافية الى عدم تناسب المعادلة تماما . معادلة عضوية المثقف وتمبيرته . ان هذا ، هو واقع كل ممارسة ثقافية . تتراجع او تتقدم في لحظات تاريخية . لكنها تبقى في آخر تحليل تعبيريا عن توتر البحث عن دور نصالي ، لا يتحقق الا داخل المهمات التي تطرحها الحركة الجماهيرية . دحر الامبريالية وسحق هيمنتها بشكل نهائي وكامل ، في سبيل بناء استقلال وطني حقيقي .

الياس خوري

اشعارات

١ - فيلب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الاول، بيروت ، المطبعة الادبية ١٩١٣ . ويشير هذا الكتاب الى ان الجريدة التي انشأها بونابرت في مصر سنة ١٧٩٩ كانت تسمى الحوادث اليومية .

٢ - دومينيك شوفاليه : « مجتمع جبل لبنان في غمرة الثورة الصناعية في اوربا » باريس ١٩٧١ ص ٢٠٠ .

٣ - يشير التقرير الذي كتبه اللورد كرومر سنة ١٩٠٥ بعد ٢٥ سنة على الاحتلال البريطاني لمصر ، الى نتائج السياسة الاستعمارية بالكلمات التالية : « الفرق واضح لكل انسان ترقى ذكياته الى عشر او خسي عشرة سنة . بعض احياء القاهرة التي كانت سابقا خلايا لعمال صناعات مختلفة : الحياكة ، الفزل ، الجبل ، صناعة الاوشمة ، الصباغة ، صناعة الخيم ، صناعة الاحذية المحلية ، الخ . . هدم الاحياء تقلصت او انقرضت . ويرى اليوم مكان هذه المشاغل التي كانت مزدهرة مقاه ومحلات صغيرة لبيع الطماطيق الاوروبية » . في انور عبدالملك : مصر مجتمع عسكري - دار الطليعة بيروت - ص ٢٠ .

٤ - يشير محمد يوسف نجم في دراسته العوامل الفعالة في تكوين الفكر العربي الحديث الى تعاقب النموذجين التركي والمصري في الاصلاحات المصرية والعثمانية . لكن هذين النموذجين هما في الاساس نسج على منوال نموذج غربي واضح . في الفكر العربي في مئة عام . منشورات انبيد المثوي ، الجامعة الاميريكية في بيروت ١٩٦٧ .

٥ - يقدم محمد عمارة سيرة مختصرة لحياة واعمال الطهطاوي في مقدمته لاعماله الكاملة . الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي . دراسة وتحقيق محمد عمارة . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٣ .

٦ - هشام شرابي : المثقفون العرب والغرب . دار النهار للنشر . بيروت ١٩٧١ - ص ١٢١ .

٧ - انور عبدالملك هو اول من ركز على هذه النقطة في ايسة مقارنة مقترضة . الفكر العربي في معركة النهضة . دار الاداب . بيروت ١٩٧٤ .

٨ - تقوم النموذجة التي يقترحها عبدالله العروي في كتابه الايديولوجية العربية المعاصرة . ترجمة محمد عيتاني ، دار الحقيقة . بيروت ١٩٧٠ ، مثالا اخذ على نموذجة خارجية . الشيخ ، الليبرالي ، والثقفي ، التي نفترض وفي الغرب مقياسا وحيدا للجبل داخل